

شرب الماء

فلا اللسان العرْبِي

بقلم :
الدكتور محمد السيد علي بلاسي
(الكاتب - خبير دولي - عضو اتحاد كتّاب مصر)

الماء أهم الموارد الطبيعية (١) : فهو ينبوع الحياة ، وسر الوجود ، وروح الحضارة ، وسيد الشراب ، ومعجزة الطبيعة ، وعنصر أساسي لتكوين الكائنات الحيّة : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (٢) .

"فتوفر الماء العذب الشروب شرط أساسي لأي تجمع بشري"

(١) على الرغم من أن الماء يغطي ٧٠٪ من الكرة الأرضية وأن كميته ثابتة لا تزيد ولا تنقص فإن المياه التي يتيسر للإنسان الاستفادة منها لا تتجاوز ٠.٠١٪ من إجمالي المياه المتوافرة . إذ تصل كمية المياه الموجودة في الكرة الأرضية إلى ١٣٠٠ مليون كم^٣ في المحيطات والبحار ، و ٣٧ مليون كم^٣ مياه متجمدة في القطبين ، و ٨ ملايين كم^٣ مياه جوفية في أماكن لا يمكن الوصول إليها ، و ٠.١٢٦ مليون كم^٣ في البحيرات والأنهار وغيرها من الصور التي يمكن للإنسان أن يستفيد منها . ويمكن تصنيف الموارد المائية إلى موارد متجددة كالمياه الأمطار والأنهار ، وموارد مائية ناضبة كالمياه الجوفية الموجودة في تكوينات جيولوجية لا تغذي بالأمطار التي تنتهي في البحار .

ينظر : مشكلة المياه وأفاق مستقبلها : د. خالد الحمودي : ص ٤ (كتيب المجلة

العربية : العدد الثاني والأربعون جمادى الآخرة ١٤٢١هـ) .

(٢) سورة الأنبياء ، من الآية/٣٠ .

سبتمبر و أكتوبر ٢٠٠٤م ٨١ ٨١ شعبان ورمضان ١٤٠٥هـ

عمراني . والحاجة إليه تصبح أشد ، مع زيادة حجم التجمعات الممثلة في كثافة السكان ، واستبحار العمران ، وتطور الحياة ، ونمو الحضارة والبنيان " (٣) .

"ولقد كان الشاعر العربي الجاهلي في شدة لهفته على الماء . وتأمله له ولآثاره في بلاده ، يعكس نفسية العربي في صحراء شبه الجزيرة العربية ..

ذلك الإنسان الذي كان في شوق مقيم وهيام دائم إلى الماء ؛ فنجده يكافح وينافح ، ويناضل ويجالد من أجل قطرة الماء ينقع بها الغلة ، ويشني الأوام ، ويبل الصدى " (٤) .

وإن حوادث العرب الضخمة ، ارتبطت - غالباً - بظهور الماء ؛ ذلك العنصر المهم وسط الصحراء العطشى .

فكم من غارة شنت ونار حرب شبت ، من أجل غدِير ، أو اغتصاب بئر .

فماء كلاب هو الذي أشعل أكثر من حرب بين القبائل ، وناقة البسوس أشعلت الحرب أربعين عاماً حين شربت من ماء غير مائها ...

أيضاً ارتبط وجود الماء باستقرار العرب وكان معلماً تاريخياً لحضارتهم وأحداثهم : "فسد مأرب" هو علامة العمران القديم الذي كان يمتد ثلاثة أشهر ، بينما انهيار السد كان بداية الهجرة والشتات . والبحث عن مستقر جديد ، وتفجر ماء زمزم هو

(٣) الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي : للأستاذ محمد بن عبد العزيز بن عبد الله : ج ١ ، ص ١٩٠ ، ٨ (ط/مطبعة فضالة ، سنة ١٤١٧هـ) .

(٤) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٩ .

شرب الماء في السنن العربي

الاستقرار حول الكعبة ، وبداية الملحمة العربية وسط الصحراء ..
فالماء هو المعلم الحقيقي للزمن العربي وسط الصحراء . وهو
الذي يخرج هذا اليوم من عداد الأيام العادية ليصبح يوماً من أيام
العرب .. (٥) .

ولا غرو ؛ فالماء سر الوجود ، يخلق الحياة من العدم . وهو
الذي قال فيه الأديب الفرنسي أنطوان دي سانت : " أيها الماء ، ليس
لك طعام ، ولا رائحة ، وليس بالإمكان وصفك ، كم يتلذذون
باحساسك . وهم لا يعلمون ما أنت ؟ من المستحيل القول بأنك
ضروري للحياة . أنك الحياة ذاتها ... " (٦) .

و لا عجب ؛ " فالماء صنو الحياة التي نعرفها ، فلا حياة بلا
ماء (٧) ، حتى إن بعض العلماء يعرف الحياة بأنها ظاهرة مائية ..
إن الحياة والماء في هذا الكون شيان متلازمان . لا ينصل
أحدهما عن الآخر .. " (٨) .

هذا ، ومن يتتبع المعاجم اللغوية القديمة ، ويستقرب ما ورد
فيها من مادة لغوية لها علاقة بالماء وشربه ، يدرك ما وصل إليه علم
العرب في هذه المادة بالذات ؛ فقد راقب العربي القديم الماء في جميع
أحواله ، منذ نشأته سحاباً ، ونزوله مطراً ، وانسياحه في الأرض سيلاً .

(٥) نفس المرجع - ج ١/ ص ٩٠ - ٢٣٠ - بنصرف -

(٦) المرجع السابق : ج ١/ ص ١٠٠

(٧) الماء أعظم المذيبات ؛ " فالبروتو بلازم " . وهو مادة الحياة . ما هو إلا محلول
ذائب أو معلق في الماء . ويتكون أكثر من ثلاثة أرباع أجسامنا من الماء .

ينظر : نفس المرجع : ج ١/ ص ٣٠

(٨) المرجع السابق : ج ١/ ص ٣٠ .

حتى وصوله إلى فم المخلوق الذي يرتوي منه (٩) .
 "ولا أدل على ذلك ، ذلك التعلق العربي القديم (بالماء) في
 شبه جزيرة العرب ، من هذه الكثرة المطلقة من الألفاظ والتعبيرات
 التي يزر بها المعجم العربي القديم ، والتي تتصل بالماء ، سواء في
 شكل أسماء خاصة ، أو صفات معينة ، تستعمل على سبيل الحقيقة أو
 المجاز . ومن المعروف أن الثروة اللغوية التي تضمها معاجنا القديمة قد
 جمعت أول ما جمعت من أصصاع شبه الجزيرة العربية " (١٠) .
 ويؤكد هذا الواقع (بول فاليري) بقوله : " ... الكلم نفسه
 طافع بحمد آلاء (الماء) ؛ نقول : إنا «نتعطر» إلى الحقيقة ... ونتحدث
 عن السلاسة التي تطبع القول ، ونتدفق أحياناً «بسيل» من
 الكلام " (١١) .

ولعل مثل هذا ؛ ما دفع المستشرق الألماني (تيودور نولدكه)
 إلى أن يتعجب بقوله : "إنا لئتملكنا الإعجاب بغنى معجم اللغة
 العربية القديم ، إذا ذكرنا مقدار بساطة الحياة العربية وشؤونها ،
 وتوحد مناظر بلادهم ، واضطرابها اضطراباً يدعو إلى السامة والملل
 ... وهذا يستتبع ، حتماً ، ضيق دائرة التفكير ، ولكنهم في داخل هذه
 الدائرة الضيقة ، وضعوا لكل تغير ، وإن قل ، كلمة تدل عليه ... " (١٢) .
 وتلك حقيقة جعلت لغتنا الخالدة في مقدمة اللغات الحية
 جميعاً . دلالة وتعبيراً ، وتصويراً للمجتمع الذي لهج ويلهج بها ،
 "فالعربية على إجازها لا تنقصها دقة التعبير ؛ فهي قادرة بأساليبها

(٩) نفس المرجع : ج/١ . ص/٦٧-٦٨ - بتصرف - .

(١٠) المرجع السابق : ج/١ . ص/٦٧ .

(١١) نفس المرجع : ج/١ . ص/٦٣ . (١٢) المرجع السابق : ج/١ . ص/٦٥ .

على التعبير عن أخفى الأفكار ، وأبهت ظلال المعاني " (١٣) .
ولقد أطلق الدكتور عثمان أمين على هذه السمة اسم :
(خاصية التلوين الداخلي) الذي كأنما يرسم للماهية الواحدة
بالأطياف والظلال ، صوراً شبيهة متعددة تغنيها باللفظ الواحد عن
عبارات مطولة تحدد بها المعنى المقصود .

وتظهر تلك الميزة جلياً في كثير من الألفاظ المترادفة الدالة
على الشيء الواحد ، منظوراً إليه في مختلف درجاته وأحواله .
ومتفاوت صورته وألوانه ، فالظماً ، والصدى ، والهيام ، كلمات تدل
على العطش إلا أن كلا منها يصور درجة من درجاته : فانت تعطش
إذا أحسست بحاجة إلى الماء ، ثم يشتد بك العطش فتظماً ، ويشتد بك
الظماً فتصدى ، ويشتد بك الصدى فتؤوم ، ويشتد بك الأوام فتهميم .

وإذا قلت : إن فلاناً عطشان ، فقد أردت أنه بحاجة إلى
جرعات من الماء ، لا يضيره أن تبطن عليه ، أما إذا قلت : إنه هائم ،
فقد علم السامع أن الظماً برح به حتى كاد يقتله ... وهذا على حين
أن الفرنسي لا يستطيع أن يربط هذا المعنى إلا في ثلاث كلمات إذ
يقول : "مات من الظماً" : "Mourant de Soif" ، أو في سبع كلمات
ليكون المعنى أوضح فيقول : "على وشك أن يموت من الظماً" :

"Sur Le Point de Mourir de Soif".

ففي كلمات العربية إيجاز يجعل من الكلمة الواحدة جملة
كاملة .. (١٤) .

(١٣) دراسات في فقه اللغة العربية : د. السيد يعقوب بكر : ص ١٥٠ (ط/بيروت .
سنة ١٩٦٩م) .

(١٤) علم اللغة بين القديم والحديث : للدكتور عبد الغفار حامد هلال :
ص ٣٢١ ، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩م (دار الطباعة المحمدية) ، نقل عن : فلسفة
اللغة العربية : للدكتور عثمان أمين : ص ٥٧-٥٩ .